المنهج التربويِّ النبويِّ في إرشاد الشباب إلى السلوكيات الإيجابية والنأي عن الآفات النفسية

The Prophetic Educational Methodology in Guiding Youth Toward Positive Behavior and Preventing Psychological Disorders

محمد فريد زريُوح

أستاذ محاضر في الحديث وعلومه

بالكلية متعددة التخصصات بالنَّاظور – المغرب

Lecturer in Hadith and its Sciences

at the Multidisciplinary Faculty in Nador – Morocco

dr.mohamed.zeriouh@gmail.com

ملخص الورقة

تسلط هذه الورقة الضَّوء على المنهج التربوي النبوي في التعامل مع فئة الشباب، مركزةً على خصائصهم النفسية والسلوكية، وكيف راعى النَّبي محمد ﷺ هذه الخصائص في تربيته لهم، بما يجمع بين الحزم والرحمة، والعقل والعاطفة.

وقد تناولت الورقة أربع خصائص بارزة في الشباب: **البحث عن القدوة والهوية، والرغبة في الاستقلال وإثبات الذات، والحاجة إلى التقدير والاحترام، والاندفاع العاطفي**، مبرزةً كيف قابل كل خصيصة منهنَّ بأسلوب فريد يجمع بين التوجيه العقلي والاحتواء العاطفي، مشفوعًا ذلك بنماذج عمليَّة من سيرته الشريفة قابلةٍ للتطبيق التربوي المعاصر، لتخلُص إلى أنَّ التربية النَّبوية قائمة على الفهم العميق لنفوس الشَّباب ومراعاة احتياجاتهم، ما يجعلها منهجًا تربويًا أصيلًا وعصريًا في آنٍ.

Summary in English:

This paper explores the Prophetic educational approach in guiding youth toward positive behaviors and away from psychological pitfalls. It focuses on four core characteristics of youth: the search for role models and identity. the desire for independence and self-affirmation. the need for appreciation and respect. and emotional impulsiveness. The study highlights how Prophet Muhammad ﷺ addressed these traits with a balanced methodology that combined rational guidance and emotional empathy. Through practical prophetic examples—like empowering young companions. affirming their value. and channeling emotions constructively—the paper presents a framework rooted in unconditional acceptance and respect. The findings emphasize that the Prophetic model is deeply aware of the developmental needs of youth. offering an educational paradigm that is both authentically Islamic and adaptable to modern educational settings.

المقدمة

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق، ليُزكِّي النفوس ويُقوِّم السلوك، ويُرشد الخلق إلى معالي الأخلاق، والصلاة والسلام على النبي المصطفى، محمد بن عبد الله، معلم البشرية، وقدوة المصلحين، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن سار على هديه إلى يوم الدين. أما بعد:

فإن فئة الشباب تمثل في كل أمَّة طليعتها النَّابضة بالحياة، وقوَّتها الكامنة، وهي الفئة العمريَّة الأكثر تأثرًا بمُحيطها، والأسرع استجابةً للقدوات والمُغرَيات، والأشدُّ حاجةً إلى الإرشاد المتوازن.

وإذا كان الاهتمام بالشَّباب ضرورةً في كل مجتمع يبتغي نهضة حضارته، فإن هذا الاهتمام قد أولاه الإسلام شأنًا عظيمًا وقد جعل إصلاح النفوس مقدمة لإصلاح الأمم.

وقد تجلَّت حكمة النَّبي ﷺ في تعامله التَّربوي مع الشَّباب بما راعى فيه خصائص هذه المرحلة، وعالج آفاتها النَّفسيَّة بمنهج يجمع بين الحزم والرَّحمة، والتَّوجيه والتقدير، ولا تزال سُنَّته في ذلك تمثّل منهجًا ربّانيًا هو الأصلح لكلِّ زمان ومكان، بما تضمَّنته من عمق في فهم النَّفس البشريَّة، وصدق في التأثير التَّربوي.

ومن هذا المنطلق، يسعى هذا النَّجيز الوجيز إلى استخلاص المنهج التَّربوي النَّبوي في التَّعامل مع الشَّباب، فإنَّه لا يبلغ المُربِّي أن يعالج سلوكات مرحلة عمريَّة ما حتَّى يفهم منشأها، ولن يعرف منشأها حتى يدرك ما اختصَّت به تلك المرحلة من سِمات افترقت بها عن سائر مراحل عمر الإنسان، فإنَّما الآفة في فهم هذه الخصائص، فإن نحن فهمناها عرفنا آفاتها وطريق علاجها.

فكان بذا مِن أهداف المتوخاة من هذه الورقة:

١. استخلاص القواعد التربويَّة النَّبوية العمليَّة مع فئة الشَّباب خاصَّة.
٢. تحليل الخصائص النفسية للشَّباب في ضوء ما تقرِّره نظريات علم النَّفس والنُّمو.
٣. إبراز البُعد التَّربوي في المعالجة النَّبوية، وربطها بمفاهيم التَّوجيه السُّلوكي الحديث.
٤. تقديم نماذج نبويَّة قابلة للتَّطبيق في مجالات الدَّعوة والتَّربية والإرشاد النَّفسي.
٥. تعزيز الوعي لدى المُربِّين والدُّعاة بأساليب نبويَّة فعَّالة في التَّعامل مع الشَّباب وتوجيههم.

وتظهر للقارئ أهمية هذا البحث من عدة اعتبارات:

- من كونِه يربط بين التَّربية النَّبوية وبين العلوم التربوية الحديثة ربطًا علميًّا تطبيقيًّا.
- وأنَّه يتناول قضايا الشَّباب من منظور نبويٍّ نفسيٍّ، يجمع بين الأصالة والمعاصرة.
- وأنَّه يقدّم حلولًا تربويَّة عمليةً لمشكلات واقعيَّة تواجه المُربِّين في تعاطيهم مع الشَّباب.

- ويُسهم في إثراء الأدبيَّات التربويَّة الإسلاميَّة بدراسة منهجيَّة تحليليَّة قوامها السُّنة النَّبوية.

ولذلك قسمتُ الورقة إلى: مقدمة، وأربعة مباحث رئيسة – كل فصل أذكر فيه خصيصةً من الخصائص النَّفسية عند الشَّباب، وأثنِّي بذكر منهج النَّبي ﷺ في التَّعامل معها – ثم خاتمة.

والله أسأل التوفيق فيه والسداد، لا إله إلَّا هو.

المبحث الأولى
خصيصة البحث عن القدوة والسعي إلى الهُوية

(الهُوية) هي الصورة التي يشكِّلها الإنسان عن نفسه: من هو؟ ماذا يريد؟ ما القِيم التي يؤمن بها؟ وما وظيفته تُجاه تلك القِيم؟ أمَّا **(القدوة)** فهي النموذج العملي الأكمل لهذه الهُوية المُبتغاة.

ولذلك كانت مرحلة الشباب منعطفًا خطِرًا في عمر الإنسان، ففيها يسعى الشَّاب إلى إيجاد نموذج يكتسب منه صفاته التي يجيب بها عن الأسئلة السابقة، ودون الإجابة عنها يعيش في اضطراب نفسي وقلق دائم[(١)].

ولا شكَّ أنَّ نبيَّنا محمدًا ﷺ هو النموذج الأعلى لنا معاشر المسلمين من بعثته إلى أن تقوم الساعة، فقد كانت آثار الاتِّساء به أبرك على الجيل الأول من هذه الأمَّة مِمَّن رأوا سيرته رأيًا يطابق ما يدعو إليه من فضائل، فتشرَّبوا سُنَّته باطنًا واصطبغوا بها ظاهرًا.

ومِمَّا يقرِّره علماء النَّفس التَّربوي: **أنَّ القدوة العمليَّة أنجع تأثيرًا في السُّلوك من الأساليب الخطابيَّة البحتة، لاسيما في حداثة سنِّ الإنسان**[(٢)].

وبذا نعلمُ كيف استطاع نبيُّنا ﷺ أن يغيِّر مِن هُويات أفرادٍ جاءوا من بيئات متنافرة إلى نماذج بشرية متكاملة، أسَّس بهم جيلًا صار الواحد منهم قدوة في نفسه لمن لقيه أو سمع عنه.

وقد كان من حُدثاء الصَّحابة من يُمعن في الاقتداء به ﷺ، بل في الأمور التي كانت تحصل منه اتِّفاقًا! كالذي كان من عبد الله بن عمر رضي الله عنهما من اتِّباع آثار النَّبي ﷺ «كلَّ مكان صلَّى فيه، حتَّى إنَّ النَّبي ﷺ نزل تحت شجرة، فكان ابن عمر يتعاهد تلك الشجرة، فيصبُّ في أصلها الماء لكيلا تيبس!»[(٣)].

وفتىً آخر تعنَّى السَّهر ليلةً بات فيها معه ﷺ لا لشيءٍ إلَّا للاقتداء، كالَّذي يحكيه ابن عباس رضي الله عنه عن نفسه قال:

«بتُّ عند خالتي ميمونة، فقلت: لأنظرنَّ إلى صلاة رسول الله ﷺ، فطرحت لرسول الله ﷺ وسادة، فنام رسول الله ﷺ في طولها، فجعل يمسح النوم عن وجهه، ثم قرأ الآيات العشر الأواخر من آل عمران حتى ختم، ثم أتى شنًّا معلَّقًا، فأخذه فتوضَّأ، ثم قام يصلِّي، فقمتُ فصنعتُ مثل ما صنع، ثمَّ جئت فقمتُ إلى جنبه، فوضع يده على رأسي، ثمَّ أخذ بأذني فجعل يفتلها..» الحديث[(٤)].

---

(١) انظر (الشاب الخليجي والمستقبل، دراسة تحليلية نفسية اجتماعية) لمصطفى حجازي، ص/ ٩٩.
(٢) انظر (علم نفس النمو) لمحمد حامد زهران، ص/ ٣٩٣.
(٣) (سير أعلام النبلاء) للذهبي ٣/ ٢١٣.
(٤) أخرجه البخاري (رقم: ٤٥٧٠) واللفظ له، ومسلم (رقم: ٧٦٢).

فكان مِن ابن عباس رضي الله عنه في كِبره ما كان من هديٍ وعلوٍّ شان.

فكان بذا لزامًا على ذوي الفضل من أهل العلم والعمل ألَّا يحتجبوا عن الشَّباب، وأن يزاحموا غثاء ما يُعرض عليهم من قدوات تافهة بُغية إفسادهم، فإنَّ الشَّاب سريع التَّأثُّر ببُهرج ما يُشحن به من قِبَل الإعلام، فإن لم يسُدَّ أهل العلم هذه الثغرة في نفس الشَّاب، فسيخنع لا محالة لِمن يملأ له هذا الفراغ ولو بباطل! والله المُستعان.

المبحث الثاني:
حب الاستقلال وإثبات الذات

هذه في أصلها مَيلٌ فطريٌّ متأصِّل في الإنسان، يتجلَّى فيه منذ فِطامه، ليشتدَّ أثناء انتقاله من تبعيته الطُّفوليَّة إلى أن يصل الرُّشد، حيث يسعى الشَّاب إلى التَّحرُّر من سُلطة الأسَنِّ، وَلَهًا في توكيد ذاته واستشعار كينونته، وهي سِمة متولِّدة عن حاجته إلى هُوية فرديَّة، وقدرةٍ على الاختيار واتِّخاذ القرار[(١)].

وهذه الخصيصة – لا شكَّ – أمارة على سلامة نفسِه من آفات الخنوع، ونموِّها نموًّا تتحقَّق به مصالحها إن سُلك بها مسلكًا تربويًّا صحيحًا.

ولقد كان النَّبي ﷺ واعيًا في تعامله مع الشَّباب بهذه السِّمة المتأصِّلة في نفوسهم، فكان يقابلهم بما يشبع نهمتهم فيها، مع إحاطتهم بسياج من التَّوجيه والتَّقويم، وقاعدته في ذلك: «**التَّفويض بحب القدرة لاكتساب الخبرة**»، وذلك:

أنَّ النَّبي ﷺ كان يستحسن أن يفوِّض الشَّاب تدبيرَ أمور غيره، وإن كانت في مألوف النَّاس من شأن الكبار، بشروط تتبيَّن بأجلى مثال في سيرته يُستحضر في هذا المقام، أعني:

تأميرَه أسامة بن زيد رضي الله عنه على جيشٍ إلى البلقاء بالشَّام، حيث عقد له النَّبي اللِّواء بيده، وخرج معه في جيشه وجوه الصَّحابة من المهاجرين والأنصار، ولم يجاوز أسامة رضي الله عنه حينها الثامنة عشر من عمره![(٢)]

فإنَّ النَّبي لم يقلِّده إمارة هذا الجمع المهيب عاطفةً ولا مجاملةً، وإن كان هو رضي الله عنه من أحبِّ النَّاس إليه، وإنَّما لِما تلمَّحه فيه من مقدرة على تحمُّل أعباء الإمارة وإنجاح طِلبتها.

ذلك أنَّ بعض الصَّحابة لم يرتضِ إمارة أسامة لحداثة سِنِّه وكونه مولىً[(٣)]، فلم يدع النَّبي ﷺ أن ردَّ عليهم بخطابٍ فصلٍ صاغه ببليغ قوله: «**إن تطعنوا في إمارته فقد طعنتم في إمارة أبيه من قبله، وايم الله إن كان لخليقًا لها! وايم الله إنْ كان لأحبَّ النَّاس إلي، وايم الله إنَّ هذا لها لخليق – يريد أسامةَ بن زيد – وايم الله إن كان لأحبَّهم إليَّ من بعده، فأوصيكم به فإنَّه من صالحيكم**»[(٤)].

---

(١) هذه الميزة ترتبط لدى الشاب ارتباطًا مباشرًا بنظرية (النمو النفسي الاجتماعي)، وتحديدًا بالمرحلة الخامسة من نمو الإنسان (مرحلة الهوية مقابل تمييع الهوية)، قد تمتد إلى منتصف العشرينات، انظر:

Erik H. Erikson – Identity. Youth and Crisis p . 45-60

(٢) سيأتي تخريج الحديث في ذلك.

(٣) انظر (الروض الأنف) للسهيلي ٧/ ٥٠٧.

(٤) أخرجه البخاري (رقم: ٣٧٣٠) ومسلم (رقم: ٢٤٦٢) واللفظ له.

فقد أناط ﷺ الإمارة بالكفاءة لا السِّن، إمارةً لا تقتضي إطلاقَ صاحبِها في مسارح الاجتهاد بلا قيود، بل هي مُسوَّرة بتوجيهات عامَّة تعصم صاحبها من الوقوع في الزَّلل، كما تراه في وصيَّة رسول الله ﷺ لأسامة رضي الله عنه وسائر مَن أمَّر على جيش: أن يتَّقي الله في خاصَّة نفسه ومن معه من المسلمين خيرًا، وأن «**اغْزُوا بِسْمِ اللهِ وَفِي سَبِيلِ اللهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ، اغْزُوا وَلَا تَغُلُّوا، وَلَا تَغْدِرُوا، وَلَا تُمَثِّلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا**»[(١)].

تأتي هذه التَّوجيهات لأسامة رضي الله عنه بعد أن غرس فيه بذرَ المسئوليَّة في نفسه سنين قبلها، ليتحمَّل تبِعات قراراته، فلا يُنفِذها حتَّى يتراءى عواقبها بين عينيه، وهذا ملمح تربويٌّ انعكست أنواره على أسامة فصُقلت بها شخصيَّته قبل تأمُّرِه، فاسمعه وهو يقول:

«بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحرقة من جهينة، قال: فصبَّحنا القوم فهزمناهم، ولحقتُ أنا ورجل من الأنصار رجلا منهم، فلمَّا غشيناه قال: لا إله إلا الله! فكفَّ عنه الأنصاري، فطعنته برُمحي حتى قتلته! فلمَّا قدمنا بلغ ذلك النَّبي ﷺ، فقال لي: **يا أسامة، أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله؟!** قلت: يا رسول الله، إنَّما كان متعوِّذًا! قال: **أقتلته بعد أن قال لا إله إلا الله؟!** قال: فما زال يكرِّرها عليَّ، حتَّى تمنَّيتُ أنِّي لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم!»[(٢)].

فقد أبان له ﷺ عن حدود ما يجوز أن يستقلَّ فيه بحكمه ويجتهد برأيه، وأن الأمر ليس على إطلاقه يفعل ما بدا له، بل خوَّفه من خطئِه، عِظةً له ولغيره أن يستسهل حكمًا قضاه دون ترشُّدٍ فيما كُلِّف به.

ولقد كان لهذا الدَّرس بليغ الأثر في نفس أسامة رضي الله عنه ، فكان يثقُل فيما يُسرع فيه النَّاس، ويعتزل الخوض فيما تُخشى عاقبته، حتَّى قال سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه فيما جرى بين الصَّحابة من فتنة: «.. فأنا لا أقاتل حتَّى يقاتل ذو البُطين – يعني أسامة –»[(٣)].

ثمَّ إنَّ النَّبي ﷺ لم يكلِّف أسامة رضي الله عنه إمارة الجيش ابتداءً حتَّى خاض قبلها ميادين الجهاد جنديًا وعركته الحروب عركَ الدَّابغ! فقد اشتمَّ غبار مؤتة ورأى هَوْلها حيث استُشهد أبوه[(٤)]، ثمَّ قاتل في الحرقة من جهينة كما مرَّ آنفًا، ثمَّ عايَن كيف يُدبّر فتح مكَّة.

فكأنَّما تدرَّج في دُربة نفسه على خوض الحروب وإدارتها، حتَّى اكتسب مَلَكةً تؤهِّله للقيادة، **وكذلك الشَّاب الحَدَث، لا يستقلُّ برأيه فيما يريد نَجازه حتَّى يتأهَّل بدُربة تحصل له بالتَّدريج.**

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (رقم: ١٤٠٨) والنسائي في الكبرى (رقم: ٨٥٣٢).
(٢) أخرجه البخاري (رقم: ٦٨٧٢) ومسلم (رقم: ١٥٩).
(٣) انظر (إكمال المعلم) للقاضي عياض ١/ ٣٧١.
(٤) انظر (سير أعلام النبلاء) للذهبي ٢/ ٤٩٧.

ومن جملة ما سُقناه من تعامل النَّبي ﷺ مع الشَّاب في حبِّه أن يستقلَّ بنفسه، نستفيد:

- أنَّ الشَّاب التَّوَّاق إلى توكيد حضوره والاستقلال بفِعاله يُعان على تدبير بعض مهمَّات مَعاشه أو غيرِه، كي تزكو مَواهبه ولا تخبو نفسُه.
- بشرط أن يُلتمس فيه الكفاءة لذلك.
- مع توجيهه توجيهًا لا يفضي إلى اتِّكاله.
- وإشعاره بما يتحمَّله من تبِعات ذلك.
- ثمَّ يُزاد في نِطاق مهامِّه بالتَّدريج مع ازدياد خبرته ونمو ذهنه وبدنه.

المبحث الثالث:
الحاجة إلى التَّقدير والاحترام

إنَّ التَّقدير يُشعر الشَّباب بأهمِّيتهم في المجتمع، فيُشبع ذلك في دواخِلهم نَهَم (الهُويَّة)، ولذلك نجدهم مُتحسِّسين لانطباعات غيرهم عليهم ويتأثَّرون بأحكامهم[(١)].

هذا التَّأثُّر النَّفسي بالتَّقدير أو التَّحقير سِمة خِلقية في الإنسان عامَّة، لكنَّها أشدُّ ما تكون في فُتوَّته، إذ يتقالُّ في جسمِه هرمون السَّعادة (السيروتونين) عند شعوره بسفول قيمته، فيودي به إلى نوع اكتئاب أو قلق؛ بخلاف ما لو قوبل بتعزيزٍ إيجابيٍّ – كمدحٍ له أو تقدير – فإنَّ بدنه ينتعش بهذا الهرمون ويزداد إفرازه، ما يحسِّن من مَزاجه، فينشط في عطائه[(٢)].

أمَّا القاعدة النَّبوية في التعامل مع الشَّاب في خصيصته هذه:

فما كان أحدٌ أبرك مديحًا لأحدٍ ولا أوقع أثرًا في نفسه من نبيِّنا ﷺ، ولقد كان يصبغ على صغار أصحابه من نِعَم المدائح ما تقرُّ به أنفسهم وتصلح به أعمالهم.

نستشفُّ هذا الخُلُق التَّربويَّ الرَّفيع منه من عينِ ما أوردناه من مثالٍ على الخصيصة السَّابقة في قصَّة تولية أسامة رضي الله عنه، وذلك قوله ﷺ: «.. **وإنَّه لخليق للإمارة!**».

فهذا مدحٌ منه ﷺ لأسامة يستأهله في موطن عصيب هو من مواطِن الرِّيَب، وذلك حين تقالَّ بعض النَّاس من شأن أسامة، فاستعلن النَّبي ﷺ بهذا الثَّناء دعمًا لركائز نفسِه أن تهتزَّ لكلامهم، وشدًّا لعضُده أن يحزن لَملامهم، فإنِّي إنَّما اخترتُك يا أسامى لِما حباك الله من أهليَّة ذلك، فطِب بذا نفسًا، وأنعم به قدرًا.

فهذا التَّقدير منه ﷺ مقصود منه التَّحفيز، **وشرط الثَّناء أن يقع على صفةٍ أو فعلٍ محمود كائنٍ في الممدوح حقيقةً، لا محاباة أو مجاملةً**، هذا ما يُشعر الشَّاب بأنَّ قيمته مُستمدة من أخلاقه وإنجازه.

اعتبر هذا من مثل قول النَّبي ﷺ في ابن عمر رضي الله عنه: «**نِعمَ الرَّجل عبد الله لو كان يصلي من اللَّيل!**»[(٣)].

---

(١) انظر (نفسية المراهق) لرياض عسكر، ص/ ٢٥٤.

(٢) انظر الورقة العلمية:

Young. S. N. (2007). "How to Increase Serotonin in the Human Brain Without Drugs. Journal of Psychiatry & Neuroscience. 32(6). 394-399.

وهي موجودة بالموقع الإلكتروني للمكتبة الوطنية للطب بأمريكا، وفي هذه الورقة إثبات أن التفاعلات الاجتماعية الإيجابية (مثل التقدير) تعزز مستويات السيروتونين عند المراهقين والشباب.

(٣) أخرجه البخاري (رقم: ١١٢١) ومسلم (رقم: ٢٤٧٩).

مُقتضى الكلام أنَّ «من كان يصلِّي من اللَّيل يوصف بكونه نِعْم الرَّجل»[(١)].

هذا إن كانت (لو) في الحديث للشَّرط، وإن كانت للتَّمني[(٢)] فإنَّ الثَّناء يكون أكمل إن تحقَّق.

وعلى الحالين فقد تضمَّنت هذه العبارة النَّبويَّة أشدَّ التَّحفيز لابن عمر رضي الله عنه، يشهد لذا قولُ سالمٍ راوي الحديث: «..فكان عبد الله بعد ذلك لا ينام اللَّيل إلَّا قليلًا».

كما أنَّ من أساليب تقدير النَّبي ﷺ للشَّباب إلحاقهم بكبار أصحابه في الشُّورى:

فكان لا يستنكف أن ينصت لآرائهم فيما يُطلب فيه الرَّأي والمشورة، مِمَّا يُعزِّز من ثقتهم بأنفسهم، ويرسِّخ به انتمائهم، ويُحسِّن تفكيرهم، ويُنمِّي فيهم مهارات قيادية عدَّة، كمهارة التَّواصل، ومهارة حلِّ الأزمات.

مثال ذلك من سيرة النبي الأكرم ﷺ:

استشارته لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه وأسامة بن زيد ﷺ في شأن عائشة – رضي الله عنها- في حادثة الإفك[(٣)].

وكذا استئذانه من ابن عباس رضي الله عنه فيما حكاه سهل بن سعد رضي الله عنه عنه: أنَّ رسول الله ﷺ أُتي بقدح فشرب، وعن يمينه عبد الله «وهو أحدث القوم، والأشياخ عن يساره، فقال له ﷺ: **يا غلام، أتأذن لي أن أعطي الأشياخ؟** فقال: ما كنت لأوثر بنصيبي منك أحدا يا رسول الله! فأعطاه إياه!»[(٤)].

وعلى ذكر ابن عباس رضي الله عنه: فقد كان النَّبي ﷺ يقابل حاجة الشَّباب إلى التَّقدير **بمكافأتهم على ما يبدر منهم مِمَّا يُستحسن**، كالَّذي جرى لابن عباس رضي الله عنه حين وضع وَضوءً للنَّبي ﷺ عند خلائه، فشكر له ذلك فدعا له: «**اللَّهم فقِّهه في الدِّين، وعلِّمه التَّأويل**»[(٥)].

وفي رواية قال ابن عبَّاس: ضمَّني النَّبي ﷺ إلى صدره وقال: «**اللَّهم علِّمه الحكمة**»[(٦)].

فكان دعاء النَّبي ﷺ بمثابة المكافأة لابن عباس رضي الله عنه على خدمته له، فلَدُعاء النَّبي ﷺ أعظم في نفسه من كلِّ متاع الدُّنيا، ولم يقتصر على ذا حتَّى ضمَّه، وهذا – لَعَمري – من أعظم مسارب الحبِّ ومظاهر التّقدير لفتىً في عمر ابن عباس.

فمن جملة ما سقناه من تعامل النَّبي ﷺ مع بعض شبيبة صحبِه من جهة التَّقدير:

نجده قد وفَّى هذه الحاجة حقَّه، يثني على خصال الخير فيهم على جهة التَّحفيز والتَّثبيت، ويكافئهم على بذل المعروف بطيب دعوة، ويستشيرهم فيما يُرجى رأيهم فيه.

---

(١) (فتح الباري) لابن حجر (٣/ ٦)

(٢) انظر (منحة الباري) للأنصاري (٣/ ١٩٤)

(٣) أخرجه البخاري (رقم: ٢٦٧٨) ومسلم (رقم: ٢٧٧٠).

(٤) أخرجه البخاري (رقم: ٢٣٦٦) ومسلم (رقم: ٢٠٣٠)، وانظر (فتح الباري) لابن حجر (٥/ ٣٠).

(٥) أخرجه البخاري (رقم: ١٤٣) واللفظ له، ومسلم (رقم: ٣٤٧٧).

(٦) أخرجه البخاري (رقم: ١٩٢٣).

المبحث الرابع
الاندفاع العاطفي

يُقصد بهذه مسارعة الشَّاب إلى إشباع غرائزه العاطفيَّة والشَّهوانيَّة دون تحسُّبٍ كافٍ لعواقب ذلك، مدفوعًا بشغف الفضول وتوكيد الذَّات، كما أنَّه سريع التَّقلُّب في انفعالاته لتغيُّر مَزاجه.

ويُعزى هذا الاندفاع والتَّقلُّب العاطفيَّين:

إلى تفاوتٍ في نموٍّ بعض مراكز الدِّماغ، حيث تنضج المناطق الانفعاليَّة في (الجهاز الحوفيِّ) قبل اكتمال (القشرة الجبهيَّة) المسئولة عن ضبط السُّلوك والتَّخطيط واتِّخاذ القرار، ما يجعل الشَّاب أكثر تحسُّسًا للمكافآت الفوريَّة، وأقلَّ ضبطًا لانفعالاته العاطفيَّة[(١)].

هذه الخصيصة النَّفسيَّة في الشَّاب ترتبط بأسلوب تربويٍّ نبويٍّ رفيعٍ، مُبتنىً على قاعدة «**الحوار العقليِّ الممزوج بعاطفة الحبِّ والشَّفقة**»، يظهر نموذجه الأسمى في حديث الشَّاب المستأذن في الزِّنا.

فيما حكاه أبو أمامة رضي الله عنه:

من أنَّ فتًى شابًّا أتى النَّبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، ائذن لي بالزِّنى! فأقبل القوم عليه، فزجروه، وقالوا: مَه مَه! فقال ﷺ: « **ادنه** « فدنا منه قريبًا، فجلس، قال: **أتحبه لأمك؟** قال: لا والله، جعلني الله فداءك! قال: **ولا الناس يحبونه لأمهاتهم**، قال: **أفتحبه لابنتك؟** قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداءك. قال: **ولا الناس يحبونه لبناتهم**، قال: **أفتحبه لأختك؟** قال: لا والله، جعلني الله فداءك. قال: **ولا الناس يحبونه لأخواتهم**،.. إلى أن قال: فوضع يده عليه، وقال: **اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحصن فرجه**، قال: فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفتُ إلى شيء[(٢)].

فبيِّنٌ من القصَّة أنَّ الشَّاب لم يكبح جِماح شهوته حتَّى عجِل في استباحتها من النَّبي ﷺ، دون أن يتمعَّن في هَول ما طَلَب ولا مِمَّن طلب! مِمَّن لا يُحلُّ حرامًا أبدًا، ولا يُحابي في ذلك أحدًا.

إلَّا أنَّ النَّبي ﷺ لِعلمِه بما تُكنُّ صدور الشَّباب من شهوةٍ فوَّارة قد تغلب عقولهم، نحا إلى تغليب جهة العقل على العاطفة، منتهجًا أسلوبَ حوارٍ عجَّ بأسئلةٍ ما أشدَّ أن تثير الفكر المَسئول: «**أتحبُّه.. أتحبُّه؟**»، وبأمثلةٍ تهيج بها أنفس أهل الغيرة: «**أمِّك.. أختك..**»، فجمع له محاورته بين العقل والعاطفة كي ينفذ إلى روحه من الجهتين! حتَّى صَرع بهذا الأسلوب هَواه، ورَدَّه إلى سابق هُداه، صلوات ربِّي وسلامه عليه.

---

(١) انظر (من أجل أن يعرف الشباب أنفسهم) لعبد الله يوسف، منشورات ضفاف، ٢٠١٥م، ص/ ٤٥.

(٢) أخرجه أحمد في المسند (رقم: ٢٢٢١١)، والبيهقي في شعب الإيمان (رقم: ٥٠٣٢)، قال العراقي في تخريج الإحياء (٢/ ٤١١): إسناده جيد رجاله رجال الصحيح.

فلا – والله – ما قابل اندفاعه بالطَّرد والتَّقريع، ولا أجابه بلفظِ القُبح ولا التَّشنيع، ولا أفتاه بحُرمة الزِّنا، فما استأذنه فيه إلَّا لعلمِه بحُرمته! إنَّما نظر النَّبي ﷺ إلى منشأ الاستئذان لا إلى الاستئذان نفسِه! بعد أن تبدَّا له أنَّه يستبطن خوفًا من الله، لولاه لقارف الخطيئة خُفيةً وما استأذن.

هنا توَّجه النَّبي ﷺ إلى الجوهر بالإصلاح لا إلى العَرَض.

ثمَّ لم يكتفِ ﷺ في هذا بالحوار العقليِّ حتَّى ابتدأه بأمرٍ وخَتَمه بأمرٍ:

بدأ الشَّاب بأن أدناه إليه: لأنَّ دُنو الأبدان مؤذن بحصول الأمان؛ يُشعره بأنَّه آمِنٌ مَقبول ولو أساء الطَّلب[(١)]، كي يتهيَّأ قلبُه أن يَعي ما يُلقَى إليه من الإرشاد، دون شعورٍ بنفورٍ ولا إدانة.

ثمَّ ختم ذلك بأن وضع يده الشَّريفة على صدره: وهذه منه لَمسة حانية، مُشعرة بمزيد قُرب وغامر شفقة، تزيل ما قد يتبقَّى في الصَّدر من أذى، وتُثبِتُ فيه ما تلقَّاه من هُدى، مشفوعًا ذلك بدعاء مَن لا ينفع نصحٌ ولا يجدى حوارٌ إلَّا بمشيئته تعالى وتوفيقه.

هكذا أسلوب النَّبي ﷺ في تقويم عاطفة الشَّاب وكبح جماحها إذا أهوت به إلى ما لا يُحمد عقباه، أسلوب يجمع بين الاحتواء العاطفيِّ، والحوار العقليِّ، والقبول الاجتماعيِّ.

أمَّا إن كانت عاطفة الشَّاب مهيِّجةً إلى ما لا حُرمة فيه ولا ضرر: فما كان النَّبي أن يكبتها فيهم، ولا أن ينازع فطرة الله الَّتي فطر الشَّباب عليها لا تبديل لخلق الله!

مع حبِّه ﷺ أن يؤول حظُّ النَّفس هذا إلى طاعة.

مثال ذلك: حديث مالك بن الحويرث رضي الله عنه يقول فيه:

«أتينا إلى النبي ﷺ ونحن شَببة متقاربون، فأقمنا عنده عشرين يومًا وليلةً، وكان رسول الله ﷺ رحيمًا رفيقًا، فلمَّا ظنَّ أنَّا قد اشتهينا أهلنا – أو قد اشتقنا– سَألَنا عمَّن تركنا بعدنا، فأخبرناه، قال: **ارجعوا إلى أهليكم، فأقيموا فيهم وعلِّموهم، ومروهم..**» الحديث[(٢)].

فقد راعى النَّبي ﷺ شعور هؤلاء الشَّببة واشتهاءَهم أهليهم، وما عزم عليهم المكوث ليستزيدوا علمًا، فإنَّ تحصيل العلم لا حدَّ له، وقد حصَّلوا منه ما يقيمون به دينهم، **فما كان إلَّا أن قدَّم حظَّ النَّفس على نافلة العلم لِما يُخاف من ضرر الأولى إذْ لا تستكين إلَّا بمَرغوبها.**

لكن «لَمَّا كانت نيَّة أولئك الشَّباب صادقةً صادف شوقُهم إلى أهلهم الحظَّ الكامل في الدِّين، وهو أهليَّة التَّعليم»[(٣)].

---

(١) وهذا ما يُسمَّى في علم النَّفس التَّربويِّ بـ(القبول غير المشروط)، أصَّل له أستاذ علم النَّفس (كارل روجرز) في كتابه:
On Becoming a Person: A Therapist's View of Psychotherapy. p: 283–284

(٢) أخرجه البخاري (رقم:٦٣١) ومسلم (رقم: ٦٧٤).

(٣) (فتح الباري) لابن حجر (٢/ ١٧١) بتصرف .

ألا ترى بصائر هذا المنهج لائحةً أنواره من قوله ﷺ: «**يا معشر الشَّباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوَّج، ومن لم يستطع فعليه بالصَّوم؛ فإنَّه له وِجاء**»[(١)]؟

فلِعلمه ﷺ بوجود الدَّاعي فيهم إلى النِّكاح غالبًا – بخلاف الشُّيوخ – ندبهم إلى التَّزويج دفعًا للمحذور[(٢)]، ثمَّ أرشد العاجز منهم عن مُؤن النِّكاح إلى الصَّوم، لأنَّ شهوة النِّكاح تابعة لشهوة الأكل، تقوى بقوَّته، وتضعُف بضعفه[(٣)].

بل هذا شابٌّ يأتيه متحمِّسًا يريد ذروةَ سنامِ الإسلام، فيصرف النَّبي ﷺ حماسته هذه إلى ما هو أرجح له من جهاد النَّافلة، وذاك أنَّه سأله: «**أَحَيٌّ والداك؟** قال: نعم، قال: **ففيهما فجاهد!**»[(٤)]، أي: «فأبلغ جُهدَك في برِّهما، فإنَّه يقوم مقام الجهاد»[(٥)].

هذا لنعلمَ أنَّ الاندفاع العاطفيَّ عند الشَّباب كما يكون لشهوة الأبدان، فقد يكون لشهوة الأديان، فيُرشده النَّبي ﷺ إلى ما فيه صلاح هذه كما يفعل مع الأولى سواء بسواء.

كالَّذي يحكيه عبد الله بن عمرو رضي الله عنه عن نفسه قال:

«كنت مجتهدًا في عهد رسول الله ﷺ وأنا رجل شابٌّ، فزوَّجني أبي امرأة من المسلمين، وجاء يومًا يزورنا، فقال: كيف تجدين بعْلَك؟ قالت: نِعْم الرجل، لا ينام اللَّيل ولا يفطر! قال: فوقع بي أبي، وقال: زوجتك امرأة من المسلمين، فعضلتَ وفعلتَ! قال: فجعلتُ لا ألتفت إلى قوله ممَّا أجد من القوَّة.

إلى أن ذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: **لكنّي أنام، وأُصلي، وأَصومُ، وأُفطر، فصُمْ مِن كلّ شهر ثلاثة أيّام،** فقلت: إنِّي أقوى من ذلك! فلم يزل حتَّى قال: **فصم صومَ داود، صُم يومًا وأَفطر يومًا، واقرأ القرآنَ في كل شهر،** قلت: إنِّي أقوى أكثر من ذلك!.. حتَّى انتهى إلى ثلاثٍ، قلت: ثلاث، فقال: **إنّ لكلِّ عمل شِرَّةٌ، ولكلّ شِرةً فترةٌ، فمن كانت فَترتُه إلى سُنَّتي فقد اهتدى، ومن كانت إلى غير ذلك فقد هلك.**

يقول راوي الحديث: فسمعت عبد الله وهو يقول: قد كبرت وضعفت، ولا أستطيع أن أدع ما انتهيت إليه!»[(٦)]، أي متحسِّرًا أن لم يأخذ بنصيحة رسول الله ﷺ.

وبذا يتجلَّى أنَّ النَّبي ﷺ كان يقابل اندفاع الشَّباب في عاطفتهم:

---

(١) أخرجه البخاري (رقم:٥٠٦٥) ومسلم (رقم: ١٤٠٠).
(٢) (رياض الأفهام) للفاكهاني ٤/ ٥٦٧.
(٣) (فتح الباري) لابن حجر (٩/ ١١١).
(٤) أخرجه البخاري (رقم:٣٠٠٤) ومسلم (رقم: ٢٥٤٩).
(٥) (التيسير بشرح الجامع الصغير) للمُناوي (٢/ ١٧٩).
(٦) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (رقم: ٣٥٩٥)، وأصله في مسلم (رقم: ١١٥٩).

بتوجيهها توجيهًا عقليًا عُمدته الحوار المقنع.

ومزاجه رحمة وشفقة.

ولا يكتفي بذلك حتَّى يصرف تلك الطَّاقة في أنفسهم إلى محلِّها الأنسب.

وإلَّا خفَّف من حِدَّتها، والله تعالى أعلم.

خاتمة

وبعد هذه الجولة في رياض السيرة النبوية، ومواقفها التربوية مع الشباب، يتبين لنا عُمق الحكمة النبوية في التعامل مع خصائص هذه المرحلة المفصلية من العمر. فقد جسدت سيرة النبي ﷺ منهجًا متكاملًا في تفهُّم احتياجات الشباب النفسية والعاطفية، وتوجيه طاقاتهم، وتربية إرادتهم، وبناء شخصياتهم على أسسٍ من الرحمة والعقل والتقدير.

ويمكن استخلاص أهم نتائج هذا البحث في الفوائد التالية:

١. أن التربية النبوية تميزت بوعي عميق بخصائص الشباب النفسية والاجتماعية، وقد تجلى ذلك في مراعاة النبي ﷺ لهذه الخصائص دون قمعها، بل بتوجيهها الوجهة الصحيحة.

٢. أن النبي ﷺ اعتمد في تربيته للشباب على القدوة والاحتواء والتفويض والتحفيز، لا على أساليب الوعظ المجرد أو الزجر القاسي، ما يدل على توازنٍ فريدٍ بين التوجيه العقلي والاحتواء العاطفي.

٣. أن البحث عن الهوية والقدوة من أبرز خصائص الشباب، وهي من معضلات عصرنا هذا، وقد واجهها النبي ﷺ بتقديم نفسه نموذجًا عمليًّا واضحًا، مما رسّخ الهوية الإسلامية لدى الشباب، وأزال عنهم الاضطراب النفسي والحيرة في الانتماء.

٤. أن حبَّ الاستقلال وإثبات الذات نزعة طبيعية لدى الشباب، واجهها النبي ﷺ بالتفويض المدروس للمسؤوليات (كتأمير أسامة بن زيد)، مما أسهم في تنمية حسّ القيادة وتحمُّل المسؤولية لديهم.

٥. أن الحاجة إلى التقدير والاحترام شعور فطري عند الشباب، لبّاه النبي ﷺ بثنائه الصَّادق، ودعائه التحفيزي، ومشورته لهم، مما عزّز ثقتهم بأنفسهم، ورفع دافعيتهم للسلوك الإيجابي والتميز.

٦. أن الاندفاع العاطفي وسرعة التَّأثُّر من أبرز مظاهر شبيبة الإنسان، تعامل معه النبي ﷺ بالحوار الهادئ والعقلي، والاحتواء العاطفي، كما في قصة الشَّاب المستأذن في الزنا، ممَّا جعل العاطفة نفسها وسيلة إصلاح، بدل أن تكون بابًا للانحراف.

٧. أن النبي ﷺ جسّد في تعامله مع الشباب قاعدة «القبول غير المشروط"، وهذه تتوافق مع ما تقرره نظريات علم النفس التربوي الحديثة (كمدرسة كارل روجرز)، من خلال القرب، والرحمة، واحترام الذات مع ما اقترفته من خطأ.

٨. أن التربية النَّبوية ليست مجرد خطاب تاريخيٍّ يُسرد، بل هي نموذج تربويٌّ قابل للتَّطبيق، يعلِّمنا تطلُّب الوعي بخصائص الفئة المستهدفة تربويًّا، وحنكةً في تنزيل المواقف على الواقع التربوي المعاصر.

والله أسأل القبول، لا إله إلا هو، وصلى الله وسلَّم على نبيِّنا محمد.

جريدة المراجع

١. **إكمال المعلم بفوائد مسلم**، للقاضي عياض بن موسى اليحصبي. تحقيق: يحيى إسماعيل. بيروت: دار الكتب العلمية، ط٢، ١٩٩٥م.

٢. **الجامع الصحيح (صحيح البخاري)**، للإمام محمد بن إسماعيل البخاري. تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر. بيروت: دار طوق النجاة، ط١، ٢٠٠١م.

٣. **الجامع (سنن الترمذي)**، للإمام محمد بن عيسى الترمذي. تحقيق: بشار عواد معروف. بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٩٨م.

٤. **الروض الأنف**، لأبي القاسم السهيلي. تحقيق: عمر عبد السلام تدمري. بيروت: دار الكتاب العربي، ط٢، ١٩٩٧م.

٥. **رياض الأفهام في شرح عمدة الأحكام**، للفقيه أبي عبد الله محمد بن أحمد الفاكهاني. تحقيق: حسن بن أحمد العواجي. الرياض: دار العاصمة، ط١، ١٤٢٢هـ.

٦. **سير أعلام النبلاء**، لشمس الدين الذهبي. تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرين. بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١١، ٢٠٠١م.

٧. **السنن الكبرى**، للنسائي، أحمد بن شعيب. تحقيق: حسن عبد المنعم شلبي. بيروت: مركز هجر للبحوث، ط١، ١٩٩١م.

٨. **الشباب الخليجي والمستقبل**، لمصطفى حجازي، المركز الثقافي العربي- المغرب، ط١، ٢٠٠٨م.

٩. **شعب الإيمان**، لأبي بكر البيهقي. تحقيق: عبد العلي عبد الحميد حامد. الرياض: مكتبة الرشد، ط١، ٢٠٠٣م.

١٠. **علم نفس النمو**، لمحمد حامد زهران. القاهرة: عالم الكتب، ط١١، ٢٠٠٣م.

١١. **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، لابن حجر العسقلاني، تحقيق: محب الدين الخطيب. القاهرة: دار الريان للتراث، ط١، ١٩٨٧م.

١٢. **من أجل أن يعرف الشباب أنفسهم**، لعبد الله يوسف. بيروت: منشورات ضفاف، ط١، ٢٠١٥م.

١٣. **منحة الباري في شرح صحيح البخاري**، للأنصاري، زكريا بن محمد. بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ٢٠٠٠م.

١٤. **المسند**، للإمام أحمد بن حنبل. تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرين. بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ٢٠٠١م.

١٥. **نفسية المراهق**، لرياض عسكر. وكالة الصحافة العربية، ط١، ٢٠٢١م.

16. **Erikson**. **Erik H**.*Identity*: *Youth and Crisis*. New York: W. W. Norton & Company. 1968.

17. **Rogers**. **Carl**.*On Becoming a Person*: *A Therapist's View of Psychotherapy*. Boston: Houghton Mifflin. 1961.

18. **Young**. **Simon N**.*"How to Increase Serotonin in the Human Brain Without Drugs."Journal of Psychiatry & Neuroscience*. Vol. 32. No. 6 (2007).